# ثقافة غاندى

كتب غاندى فى صحيفته مرة عن الطالب والمطالعة، فقال عن الأدب المكشوف : « لقد كان ريتولد — أحد الكتاب المشهورين بوصف المناظر المكشوفة — صاحب حظ بين الطلاب فى أيام تلمذتى، فلم أنج من قراءته إلا لأنى كنت أبعد شىء عن أن أوصف بالطالب الأمثلى، ولم أعن قط بالخروج من نطاق الكتب المدرسية، ولكننى ذهبت إلى انجلترا فوجدت مع هذا أن أمثال هذه القصص منفية من كل بيئة متحشمة، وأننى لم أخسر شيئاً إذ لم أطلع على واحدة منها . . »

ونحن نفهم هذه الكلمة فهماً صحيحاً إذا فهمنا منها أن « المهاتما » لم يكن متبحراً فى المطالعة، ولم يكن قط من أولئك الذين يوصفون بين العربيين بأنهم ديدان كتب أو أحلاس مكتبات.

ولكننا نخطىء فهمها إذا خطر لنا أن نصيب الرجل من الثقافة كان نصيباً نزراً بين أمثاله، أو أنه عاش فى عزلة عن ثقافة الأمم الأخرى، وبخاصة ثقافة عصره، ونعنى بها ثقافة القرن التاسع عشر على التخصيص.

والواقع أن غاندى لم يكن مزود الحظ من الاطلاع ، ولم يكن مقصوراً فى قراءته — أثناء التلمذة فى أوربة — على الدروس التى كان متخصصاً لها بحكم هذه التلمذة ، وهى دروس التشريع والعلوم السياسية .

فقد اطلع على أفلاطون وترجم منه « دفاع سقراط » إلى اللهجة الجوجراتية ، وهى لهجته الوطنية .

واطلع على كارل ماركس ، وجون ستيوارت ميل .

وأعجب بتولستوى الروسى ، ومانسينى الإيطالى .

وتتبع آثار « رسكن » وترجم له كتابه « حتى هذا المصير » Unto this last إلى اللهجة الجوجراتية .

وكان يقرأ « ماكولى » ويستطيب أسلوبه وبراعته فى تعبيره .

وكان يستحسن « ثورو » الأمريكى ، ويعجب بمعيشته وآرائه .

ودرس اللاتينية فاستطاع أن يتذوق فيها عيون الأدب القديم فى بلاغته الأصيلة .

وقليل من المصلحين الشرقيين فى زمانه من أخذ بنصيب من الثقافة العامة أوفى من هذا النصيب .

* * *

غير أننا نخطىء مرة أخرى إذا فهمنا من هذا أنه تتلمذ لواحد من هؤلاء وتوجه معه إلى وجهته الفكرية أو الروحية وإنما كان يتجه إلى الكاتب أو الفيلسوف حين يجده فى اتجاهه الذى نشأ عليه بين أبيه وأمه ، فيختاره لأنه نهج من قبله فى طريقه المرسوم .

وخير ما يقال فى علة اغتباطه بهؤلاء الكتاب والمفكرين أنه شبيه باغتباط الإنسان حين يحل فى بلد غريب ، فيعثر فيه على أناس يتكلمون بلسانه ، ويعرفون بلده ، ويذكرونه بوطنه الأصيل .

فلم يعجب بأحد من كتاب أوربة فى زمانه كما أعجب بتولستوى . . قرأ قصصه الكبيرة والصغيرة ، وكتب إليه ، واعتز بجوابه ، وأطلق اسمه على مزرعته التى أنشأها فى أفريقية الجنوبية للرياضة الجسدية والروحية ، وكان يستشهد به فى عظاته ومقالاته . فلم يجد مثلا يذكره عند الكلام على تحريم التدخين غير مثل السكران الذى قال تولستوى فى بعض أقاصيصه إنه تردد عن الجرم وهو سكران ، ثم أقدم عليه بعد تدخين سيجارته ، وهو مستريح إليه .

ولكنه أحب تولستوى لتبشيره بالمقاومة السلبية ، واجتناب العنف والثورة الدموية ، ولم تكن هذه المقاومة

إلا شعبة واحدة من شعب العقيدة التي تنتمي عليها عائدي ، وهي عقيدة « الأهمسا » التي تقدمت الإشارة إليها .

كذلك أحب « ثورو » لأنه كان يوصي بالعصيان المدني Civil-disobedience ويتمسك بين أحضان الطبيعة .

ولم يستحق « رسكن » إعجابه بما كتبه عن نقد الفنون ، وشرح مذاهب التصوير ، ولكنه استحق منه هذا الإعجاب بنزعته « النباتية » وإنحائه على الصناعات الكبرى ، لأنها تمسخ الإنسان وترده إلى عداد الآلات في تفكيره وعمله .

وكانت حقوق الانسان وحقوق الأمم ، هي أهم ما استهواه في ماتسيني زعيم النهضة الإيطالية .

وكان الإنحاء على « رأس المال » شفيع كارل ماركس لديه ولم يوافقه في شيء غير هذا من دعوته إلى الثورة والانقلاب .

وكان يدرس « جون ستيوارت ميل » لأنه كان نبي الحرية بين فلاسفة العصر الحديث ، ويقرأ « ماكولي » ، لأنه عاش في الهند ، وتكلم عن تاريخها وعلق بعض التعليق على أدبها القديم .

ولم تعنه قط مدرسة فكرية في بلاد الانجليز كما عنى بمدرسة المتصوفين الروحانيين « Theosophists » لأنهم هم أيضا يرجعون إلى كتب الهند ، ومراجع الشرق القديم .

ومن عجائب أطواره فى التثقف، أنه دان بكتب الهند الدينية ولم يطلع عليها فى اللغة السنسكريتية ، فلما وصل إلى انجلترا قرأ سفر « البهاجفاد » Bhagavad Gita فى ترجمته الانجليزية التى ترجمها السير « ادوين ارنولد » . وسماها بالقصة السماوية The Story Celestial .

فالرجل لم « يتكون » بمادة هذا الغذاء الذى أقبل عليه فى أوربة ، ولكنه أقبل عليه لأنه صاحب « قابلية مكونة » تتغذى بما تشتهيه ، وتختار لبنيتها ما يوافقها من الغذاء .

* * *

ويبدو لنا أن دروسه التى تخصص فيها لم تعطه من هذا الغذاء غير ما أراد أن يأخذ منها .

فقد تخصص للتشريع والعلوم السياسية ، ولكنه أخذ من هذه الدروس ما يوافقه فى منحاه ورسالة حياته ، ولم يستفد منه شيئاً فى أعمال المعيشة أو خطط السياسة .

فقد تعلم ليكون محامياً فى دور القضاء .

ولكنه لم يفلح فى المحاماة ، وما كان ليستطيع أن يفلح فيها .

لأنه أبى كل الإباء ، حين عاد إلى وطنه ، أن يستعين بسماسرة القضايا الذين كانوا عمدة المحامين الناشئين فى

ترويج شهرتهم ، ولا يزالون كذلك إلى الآن .

وعز عليه فى أول قضية قبل توكيلها أن يرهق المدعى عليه بالأسئلة المحرجة ، فكان حرجه هو فى المحكمة أشد من حرج المدعى عليه .

وحدث فى أفريقية الجنوبية أن صاحب قضية خدعه عن حقيقة دعواه ، فأخفى عنه بعض الحقيقة وصور له بعضها على غير صورتها . فلما اتضح له من مناقشة خصمه أمام القضاء أن المدعى مبطل وأن المدعى عليه مظلوم ، نهض - فى كثير من الخجل - معتذراً للمحكمة ، طالباً منها رفض القضية ، لأنه علم من حقيقتها فى تلك الساعة ما لم يكن يعلمه حين قبل الوكالة فيها .

ولما سافر إلى أفريقية الجنوبية ، كان سفره بدعوة من أبناء إقليمه الذين كانت لهم تجارة واسعة فى عدة بلاد منها ، وكان عمله أن يساعد كبار المحامين من الإنجليز فى بعض قضاياهم الكبرى ، فلم يسترح ضميره إلى هذه الخصومة التى ظهر له أنها فى غير طائل وفى غير موجب ، وأنها قابلة للصلح والتوفيق ، وجعل همه الأول أن يسعى فى الصلح بين الفريقين ، ولو كان فى ذلك اقتضاب لطريقه إلى الشهرة والانتفاع .

وأخذ على نفسه عهداً لايطالبن أحداً بحق له من طريق المحاماة ، ولا يستخدمن هذه الصناعة لنفسه ، ولا يستخدمنها لغيره إلا دفاعاً عن مظلوم أو حق مهضوم .

ومحوى ذلك أن هذا الرجل الذى لقبوه وصدقوا فى تلقيبه : بالروح العظيم ، كان صاحب « روح » ناضج التكوين حين قرأ لثقافته ، وقرأ لصناعته على السواء . فلم يأخذ من تفكير عصره ، ولا من دروس صناعته ، إلا ما تطلبته « بنيته الروحية » وهى عالمة بما يصلح لها من غذاء ، ومن وسيلة قوة ونماء .

* * *

وكأنما ختم غاندى مطالعاته الأدبية باختتام عهده فى المطالعات المدرسية ، فلم يُرو عنه أنه توفر على قراءة قصة أو كتاب من كتب الأدب بعد عودته من البلاد الانجليزية . وصرف اهتمامه كله إلى دراسة كتب الأديان والعقائد على اختلافها . فقرأ القرآن والأناجيل فى ترجماتها الانجليزية ، وقرأ كتب الديانة الصينية والديانة المجوسية فى تلك اللغة ، وقرأ طرفاً من علم المقابلة بين الأديان ، وانتهى منها على أن الديانات العظمى جميعاً موحاة من عند الله ، وأنه لاخير فى تحول المؤمن من دين إلى الدين ، وإنما تصلح البرهمى

أو المسيحي أو المسلم بأن تجعله برهمياً أحسن ، أو مسيحياً أحسن ، أو مسلماً أحسن . وذلك ميسور له مع البقاء على دينه ، مادام في دينه ما يوصيه بالحق والخير والصلاح والمودة لجميع الناس .

وقد لوحظ على غاندى أنه أغفل جانب الفن فى عمله وفى وصاياه . فلم يشغل باله بالصور والتماثيل والشعر والموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة ، واتفق مريدوه ونقادوه على هذه الملاحظة ، وسأله غير واحد من المريدين عنها فأجابهم بما أقنع بعضهم ولم يقنع الآخرين .

من هؤلاء طالب اسمه راماشندران Ramachandran قدمه إليه صديقه الانجليزى مستر « اندروز » فلازمه أياماً وجعل يناقشه ويستفسره فى مضامين فلسفته واعتقاده . فكان جواب غاندى له حين سأله عن المثال ما نحواه : إن الأشياء حقيقة وظاهر ، وأنه لا يحفل بالظاهر ما لم تكن فيه دلالة على الحقيقة الباطنة .

قال الطالب : أليس فى الفن تعبير عن قلق النفس وجيشانها بالحس فى كلمات وألوان وأشكال ؟

قال غاندى : ولكن أصحاب هذه الفنون لا يحفلون كثيراً بعمل الروح .

وسأله الطالب مثالا . فمثل له بفن أوسكار وايلد ، لأن قضيته وكتبه كانت حديث الناس فى أيام مقام غاندى بالبلاد الانجليزية .

قال الطالب : لقد زعموا أنه أعظم فنان بين أدباء زمانه .

قال غاندى : نعم . « إنما كان وايلد يرى الفن الأعلى فى الصورة الظاهرة ، ولهذا نجح فى تجميل الرذيلة ، وكل فن حق فمن الواجب أن يعين الروح على تحقيق جوهرها الأصيل ، وأننى فيما يخصنى أرى أننى أستطيع أن أصرف النظر عن جميع المظاهر فى تحقيق لجوهر روحى . وأستطيع أن أدعى أن فى حياتى مايكفى من الفن ، وإن كنت لاترى حولى ماتسميه آيات فنية » .

قال الطالب : إنهم يجدون الحق فى الجمال .

قال غاندى : بل أحرى أن نجد الجمال فى الحق .

فسأله الطالب : ألا يمكن الفصل بين الاثنين ؟

فأجابه غاندى سائلا : أترى كل امرأة وضاحة الملامح جميلة ، ولو كانت تنطوى على نفس خبيثة ؟

فقال الطالب : إن الفنان فى هذه الحالة يودع بين طيات ملامحها ماينم على خبث نفسها .

قال غاندى : إذن نرجع إلى الباطن فى تحقيق معنى الجمال .

أو نرجع إلى أن الملامح الظاهرة ليست هى الجمال .

وعاد الطالب يسأله : كيف نفهم إذن أن كثيراً من الآيات الفنية الجميلة قد خلقها أناس لم يكونوا على خلق جميل .

فقال غاندى : كل مايفهم من هذا أن الحق والنقيضه قد يتجاوران ، وانهما لاينفصلان فى جميع الأحوال .

وختم هذا الحوار قائلا : لايكون شىء من الأشياء جميلا إلا بمقدار دلالته على خالقه ، والا فكيف يغير ذلك يوصف بالجمال .

وبدا على الطالب أن المهاتما أقنعه برأيه ، فتمنى لو أنه يكتب فى نقد الفنون على هذا الأسلوب ، فاعتذر « المهاتما » لأنه لا يحسب نفسه من ذوى الاختصاص فى نقد أعمال الفنانين ...

وهذه ولا شك وجهة نظر ناسك ، معرض ، عن فضول العيش وزخارف الأشياء ، ولكنها مع هذا وجهة نظر يأخذ بها كثير من الكتاب الفلسفيين الذى يرفعون أعمال الفن إلى الذروة العليا بين شواغل الإنسان فى كل زمان ، ومنهم أروين ادمان Irwin Edman الذى يقول فى كتابه مسألة الفلاسفة Philosophers Quest : « إن هذه اليقظة للكون كله — لا للصورة والنغمة — هى غاية كل من يسمون إلى اليقظة

الكاملة . ولابد لهم — إذا أرادوا أن يبلغوا هذه الغاية — من أن يذهبوا وراء الفنون ووراء الفلسفة ، وإن ذهبوا إلى هذه الغاية من طريق الفلسفة نفسها . إلا أنهم لاينبغى أن يقفوا عند خطوات النقاش والبحث والتفكير ، بل عليهم أن يذهبوا وراء الكشف والرؤية . ليروا ثمة أن الكون كله يصبح أمامهم كأنه الصورة أو اللحن فى نظر الناظر وسمع السامع المستغرق فى الرؤية والسماع . هنالك يبدو كل شىء واضحاً فى سره وعجبه ، وينظر الشاب الذى راض روحه هذه الرياضة فإذا هو ناظر بكل مافيه من قوى الروح التى استولى عليها هذا الشعور ، وإذا هو فى يقظته قد تخلص من نفسه مضحياً مفادياً ليمتزج بما وعاه » .

ومهما يكن من حكم النقد الفنى على هذه النظرة ، فإن هذا النقد لا ينفى — ولا يستطيع أن ينفى — أن المرء قد ينظر هذه النظرة إلى الفنون ولا يحرم حظ المتعة بجانب من جوانب الجمال . وقد كان غاندى على التحقيق يستمتع من الجمال بكل طيب بسيط ، فكان يطرب للأناشيد الروحية ، ويبتهج برقص الأطفال ، ويهش لرؤية الأزهار والمروج ، وكان أسلوبه الكتابى نفسه أسلوباً رائقاً صافيا لا يخلو من نغم وجمال وإن خلا من كل تنميق ، وقد اعتبر الموسيقى

عاملا من عوامل التربية القومية ولا سيما رياضة الجماهير . . . لأن الجماهير تحتاج إلى النظام والانتظام نسق ينهى عن الفوضى ، وأسف لأن الموسيقى فى الهند نعمة مقصورة على الخاصة . وقال غير مرة أنه يود لو استطاع أن يفرض تعليمها فرضاً وأن يشترط فى جميع المؤتمرات الكبرى أن يحضرها كبار الموسيقيين .

ولا خفاء بعد هذا كله فى مكان الفنون عند غاندى بالنسبة إلى الصناعات . فإن نصيب الصناعات من عنايته كان أوفر جداً من نصيب الفنون .

ولكننا خلقاء أن نفرق هنا بين نوعين من الصناعات على حسب الآلات التى تستخدم فيها .

فالصناعات التى يُسخّر فيها الانسان للآلة شر على ملكات الروح .

والصناعات التى تُسخّر فيها الآلة الإنسان خير لملكات الروح .

تلك تجعل الانسان عبداً للآلة . وهذه تجعله سيداً للآلة وسيداً لنفسه ، وهذه هى تربية الروح وتربية الجسم وسبيل الاستغناء .

وكل شر فى العصر الحديث ، على رأى غاندى ، فهو

راجع إلى تلك الآلات التى حولت الانسان إلى آلة معلقة بها ، وزادت حاجاته فزادت أعماله ، وزادت ـ تبعاً لذلك ـ هذه العبودية للصناعة والمصنوعات .

وكل خلاص من هذا الشر فإنما سبيله وضع الآلة فى موضعها ، وهى أن تصبح فى يد الانسان ، فلا يعمل يومئذ أكثر مما يحتاج إليه .

لهذا قرر فى برنامج تعليمه أن تكون الصناعة اليدوية درساً إلزامياً لكل تلميذ فى كل مرحلة من مراحل الدراسة ، وأخذت حكومة الهند الوطنية برأيه فى برامجها الحديثة .

وهذه البرامج ، فى رأى غاندى ، هى فى وقت واحد تربية روحية وحل لمشكلة من أعصى مشكلات الاجتماع فى الحضارة العصرية .

وليس هذا الرأى بخلو من الصواب .

لأن الحقيقة المتفق عليها أن حس الانسان وعقله قد استفادا من مرانته على الصناعات اليدوية ، ويقول بعض علماء النفس المحدثين أن نمو الخلايا الصفراء فى الدماغ قد نشأ من استخدام الانسان لأصابعه وإبهامه ، وقد وافق غاندى على اعتقاده فى شرور الصناعات الكبرى قائد عسكرى من نقاد التاريخ : هو الجنرال فلر Fuller صاحب كتاب التسليح والتاريخ

فقال فى كتابه هذا : « إن الحرب وباء كامن فى الحضارة الأوربية ، لأنها تدور فى حلقة مفرغة من الحرب والصناعة . . . فإن القوى الآلية تؤدى إلى البطالة ، والبطالة تزيد فى نزعة الخصومة ، ونزعة الخصومة تتطلب عدواً تخاصمه ، والسياسة تدبر لها ذلك العدو ، فتأتى الحرب من ثم وتعالج مشكلة البطالة إلى حين » .

* * *

إلا أن الثقافة التى زاولها غاندى لا تقاس فى جوهرها بمقياس الصواب والخطأ ، ولا بمقياس العلم والجهل فى عرف زمانه ، ولكنها تقاس على حقيقتها بمقياس المبدأ الذى يغلبه على جميع المبادىء ، والأصل الذى يقدمه على جميع الأصول عند نظره إلى صلاح الانسان الذى يقاس بمقياس الدوام فوق عوارض الزمن وعوارض الدول والجماعات .

فقد كان هذا الرجل يعلم كل شىء يحتاج إليه فى رسالته ولم يكن يجهل شيئاً يدخل فى حسابه .

فإذا قاوم المخترعات الحديثة ، أو قاوم العلم الحديث ، أو قاوم الطب الذى تشفى به الأجسام ، فهو لا يفعل ذلك كما يفعله أصحاب الخرافة والجمود ، إذ أنه يعلم ما يجهله الخرافيون الجامدون ، ولا يصدر فى رأيه عن جهل بما فاتهم أن يعلموه .

ولـكنه يقاوم ما يقاومه وهو عارف بقيمته كما يعرفها معارضوه. إنما يعرف هذه القيمة ويعرف ماهو أعلى وأدوم منها فى اعتقاده، وهى سلامة الروح.

فما سلمت به الروح فهو معرفة كافية.

وما عطبت به الروح فهو جهل منـكر، أو علم عارض لا ينـكر نفعه ولا ينـكر ضرره، وهو أكبر وأبقى، وإن سلمت به الأجسام.



obeikandl.com

# غاندى والجيل الجديد

كثيراً ما تكون موازين الشعوب أصدق من موازين المؤرخين فى تقدير مكانة العظيم بين أبناء قومه . ولا سيما حين تطلع تلك البداهة فى تعبيراتها الفطرية التى تجمع الكثير من المعانى فى القليل من الكلمات .

وقد عرفت بداهة الهند أين تضع غاندى من أمته ، فلم تضعه موضع الزعامة السياسية ، ولا موضع القيادة الاجتماعية ولكنها وضعته موضع الأبوة المحبوبة الموقرة ، التى يحق لها أن تطاع وينتظر منها أن تغتفر بعض العصيان ، بدالة الأبناء على الآباء .

لم تنظر إليه فطرتها إلى الزعيم السياسى . لأن السياسة لم تكن له غاية ولم يكن لها المقام الأول فى سعيه ورأيه .

ولم تنظر إليه نظرتها إلى القائد الاجتماعى ، لأن القيادة الاجتماعية فى أكثر الأحيان قيادة حركة أو إرشاد فى مرحلة من مراحل التطور ، ولم يكن غاندى قائد حركة ، أو دليل مرحلة تنتهى إلى غرض محدود .

بل هى لم تنظر إليه كأنه داعية نهضة ، لأن النهضة كثيراً

ما تتعلق بجيل واحد هو الجيل الناشىء أو الجيل الناهض وترمى إلى تبديل لا يلبث أن يتلوه تبديل .

إنما نظرت إليه كأنه « أبوها » المرموق بعين البر والإجلال ، وكانت تدعوه بهذه الدعوة المستحبة : بابوجى . أى يا أبتاه .

وقد كان كبار القوم وصغارهم ينادونه بهذا النداء ، ومنهم من هو فى سنه ، ومن هو أسن منه ، لأنه تمثل لهم فى صورة وطنهم الروحانى الخالد ، أو فى صورة الأبوة القومية Fatherland التى لا تقاس بأعمار الآحاد .

ولم تكن له من ثمة رسالة خاصة إلى الجيل الجديد ، لأن أقدم الأجيال وأحدث الأجيال فى رسالته الروحانية يستويان .

فكانت ناشئة الهند تحبه ، وتجله ، وتثق به ، وتستحى من إغضابه . وكانت لقداسته مكانة خاصة بينهم ، لأنه قديس صنع نفسه ولم تصنعه المسوح والمحاريب : تعلم كما تعلموا ، وكان فى وسعه أن يطمح إلى مظاهر الدنيا كما يطمحون إليها . فبينه وبينهم قرابة لا يشعرون بها فيما بينهم وبين أحبار الدين الذين سيقوا إلى القداسة بحكم الصناعة ، وله عندهم مكانة العقيدة التى يعتقدونها ومزية النشأة العصرية التى نشأوا عليها وكرامة

« الهندى » الذى جعلهم يفخرون بالهند بين الأمم ، وجعل للروحانية محلا مرعياً بين مذاهب العصر الحديث . ولكنهم — على ما نظن — كانوا يحارون فى أمره كما كان يحار فيه كل من سمعوا بدعوته ، ولا يرون أنه يدعوهم إلى خطة يمكن العمل بها فى مجال السياسة أو مجال العيش أو مجال الأخلاق .

ومنهم من كان يصارحه القول فى هذا ، ولا يمنعه الحب والتوقير أن يكتب إليه « أنه لا يحسبه يفهم ما يجول فى خواطر الشباب » .

وكانت وصاياه فى مسألة النزعات الجنسية أعسر شىء على الشباب أن يستجيبوا إليه بطبيعة الحال . فلما أكثر من الكتابة فى ضبط هذه النزعات وأوصى الأزواج من الشبان والشابات مرة بعد مرة أن يمتنعوا عن العلاقة الجنسية لغير النسل ، كتب إليه أحدهم يقول : « إننى أقرأ ما تكتب فيخامرنى الشك فى فهمك للعقل الناشىء ، فإن ما استطعته أنت ليس من الضرورى أن يستطيعه جميع الشبان . وإننى لمتزوج وقادر على ضبط نفسى ، ولكن زوجتى ليست مثلى ، وهى كذلك لا تريد الآن أطفالا . وتريد أن تعطى نفسها حظها فماذا ترى أن أصنع . . أليس من واجبى أن أرضيها ؟

والواقع أن العظماء من أبناء جيل قد يفوتهم أن يفهموا

الجيل الذى ينشأ بعد زمانهم . ولكن المسألة هنا ليست مسألة جيل قديم وجيل جديد ، لأن النزعات الجنسية غير مجهولة فى جيل من الأجيال أو أمة من الأمم . ولو أن غاندى قال ما قاله عن النزعات الجنسية قبل ألف سنة لكان موقفه من أبناء ذلك الزمان كموقفه من أبناء زمانه ، وهو يعلم ذلك ولا يجهله . وقد أجاب الطالب الذى وجه إليه ذلك الخطاب بما فى هذا المعنى . ثم قال له : إن ضبط النفس لا يعنى أن تكف عن العمل الجنسى وحده ، وإنما يعنى الكف عن الإغراء وعن التغذية المثيرة وعن الملامسات الذهنية والحسية كما يعنى القدرة على تحويل الغريزة إلى وجهة غير وجهتها الجسدية بما يشغل النفس من شواغل العطف والفكر والمحاسن الروحانية . ولكنه إقناع لا يخفق مع سامعيه لضعف فى الحجة أو نقص فى البيان ، بل لقوة فى الغريزة ، ورغبة عن الاقتناع .

كذلك كانت وصايا غاندى بالمسالمة فى وجه كل عدوان تجاوز طاقة الاحتمال . فإن الجيل الجديد كان يصغى إليها ، وكان لا يكفر « بالاهمسا » التى تلقاها مع موروثاته من مئات السنين ، بل ألوف السنين ، ولكنه كان يتكلف عنتاً حين يتكلف كظم الفتوة التى تغلى فى دمه ، وكان يستحى أن

يغضب « المهاتما » إذا نوى الصيام احتجاجاً على أعمال العنف والمقاومة الدموية ، فيمسك عن المقاومة إلى حين ، وهو يعلم أن المهاتما يكلفه ما لا يطيق .

إلا أن غاندى مع هذا لم يهبط فى نظرهم ، بل ارتفع إلى مقام الآلهة والأنبياء ، فجعلوا وصاياه من قبيل وصاياهم ، وجعلوا عصيانهم لها مكرهين من قبيل عصيانهم للوصايا الإلهية حين تقصر عنها طاقة البشر ، وإن كانت عندهم أهلا للإيمان ، وأهلا للاتباع .

ومن الأمور التى لها دلالتها فى هذا الصدد أن غاندى مات بيد شاب جاوز الثلاثين ، فكان هذا أعنف اصطدام بينه وبين مخالفيه ، ولكنه لم يكن اصطداماً بينه وبين شاب من أنصار التقدم أو أعداء القديم ، بل كان اصطداماً بينه وبين شاب يتعصب للقديم ولا يقبل التسامح فيه .

ومن هنا يبدو لنا محور المشكلة فى دعوة غاندى أو محور الصعوبة فى مجاراة هذه الدعوة . فليست هى مشكلة الصراع بين عقل قديم وعقل حديث ، ولكنها هى المشكلة الأبدية التى لا تزال قائمة مع كل إصلاح ، وهى بها مشكلة التغلب على الطبيعة البشرية ، أيا كان تفكير المصلح أو تفكير المخالف . . . وهى معركة باقية لا تتغير فى العسر أو اليسر بين جيل وجيل .

# ... والمـــرأة

يقول الذين يعتقدون تناسخ الأرواح من الهنود ، إن الذى يلد يولد ، وإن الإنسان يعود إلى عالم الجسد ما دام يلد الأبناء ويخرجهم فى عالم الجسد . وإنما ينفصل من المادة ، ويتصل بعالم الروح ، ويفلت من سلسلة الولادة المتجددة ، بعد انقطاعه عن كل صلة جنسية ، وقيامه بفروض النسك والتبتـل .

فولادة النسل عمل يجزى عليه الإنسان بالعودة إلى الولادة . ويستوى فى هذا الجزاء الرجل والمرأة . فليس فى الديانة الهندية لعنة خاصة بالمرأة فى الإغراء على الخطيئة .

ولهذا يندبون الذكور والأناث إلى ضرب من الزواج تنقطع فيه العلاقة الجسدية بين الزوجين ، وتقوم الصلة فيه بينهما على العلاقة الروحية دون غيرها .

فكانت هذه الروحانية أشد على المرأة الهندية من لعنة الخطيئة التى لاحقتها فى الديانات الأخرى .

لأنها أنشأت فى الهند زواج الأطفال ، وأنشأت فيها عادة إحراق الأيامى مع أزواجهن ، ثم منعت الحكومة الإنجليزية

إحراق الأيامى فاستبدل به التأيم وتحريم زواج المرأة بعد موت زوجها الأول مدى الحياة .

ويتفق أن يموت الزوج وهو فى العاشرة أو دون العاشرة. لأنهم قد يعقدون الزواج بين الطفل والطفلة فى السنة الأولى من عمرهما ، ولا يندر ذلك بالنسبة إلى زواج الكبار . فإن نسبة الأطفال الذين عقد زواجهم قبل تمام السنة الأولى من عمرهم قد بلغ ثمانية فى المائة خلال سنة ١٩٣١ ، وبلغ عدد الأيامى فى هذه السن أكثر من ألف وخمسمائة ، وبلغ عدد الأيامى ممن تجاوزن الثالثة ولم يتجاوزن الرابعة أكثر من تسعة آلاف .

فتولد البنت ثم تتأيم قبل أن تبلغ مبلغ النساء ، وتظل أيما إلى أن تموت ، وهى حرام على غير زوجها الأول . لأن لها روحاً واحداً ، وهى بهذا الروح لا تنفك عن روح ذلك الزوج .

وكان غاندى مؤمناً بتناسخ الأرواح أقوى الإيمان . حتى لقد كتب مرة أن تناسخ الأرواح عنده أكثر من عقيدة لأنه حقيقة واقعة كهذه الشمس الطالعة .

وكان كذلك يؤمن بوجوب الانقطاع عن علاقات الجسد لبلوغ « الموكشا » أو الخلاص .

ولـكنه كان ينـكر زواج الطفولة ، كما ينـكر تأيم الأطفال ، وكان له عمل مشكور فى إصلاح الزواج وإبطال عادة التأيم . بل كان يوصى الشبان باختيار زوجاتهم من بين المتأيمـات خاصة ، لأنهن لا يحسبن متزوجات بأى حسبان صحيح .

وقد ثار عليه أنصار القديم أعنف ثورة حين تصدى لإبطال هذه العادة وأعلن نصيحته للشبان بالتزوج من البنات المتأيمات . كان هؤلاء الجامدون يطيقون أن يبطلوا هذه العادة عملا ، ولـكنهم لايطيقون أن يقدح فيها زعيم من زعمائهم علانية كأنها سخف لايجوز اعتقاده ولايجوز اتباعه . إلا أنه لم يحفل بثورتهم عليه . لأنه كان على ثقة من أن هذه العادة التى تصدى لإبطالها ليست من الدين وليست من العقل ولا من الخلائق الإنسانية .

كان ينـكر أصلا أن إحراق الأرملة على جثة زوجها قد أمر به الدين البرهمى فى كتاب من كتبه المعوّل عليها . وكان يقول أنه لو صح أن إحراق الأرملة على جثة زوجها واجب لاتصال روحيهما ، لوجب مثله إحراق الزوج على جثة امرأته المتوفاة ، وأن إحراق إنسان حى لا يحيي أحداً بل يزيد فى عداد الأموات .

وكان يقول إن الرهبانية المقصودة هى رهبانية من يغالب غواية الجنس ويقوى على مغالبتها . فلا رهبانية للطفل ولا للطفلة قبل بلوغهما مبلغ الرجال والنساء .

أما الزواج عامة فهو فيه وسط بين المنع والإباحة . فلا ضير من العلاقة الزوجية ولا موجب للخجل منها ، ولكن بمسوغ واحد : وهو طلب النسل لا طلب المتعة الجسدية . وقد سأله بعضهم عن المعقمات لمنع النسل فى بعض الحالات التى يتنى فيها الوالدان كثرة البنين والبنات ، فحرمها كل التحريم ، وقال إن اتصال الزوج بزوجة لمحض اللذة لا حجة له أقوى من حجة الشذوذ الجنسى البغيض ، ولا مسوغ له أشرف من مسوغ المتعة الجنسية التى يجدها شواذ النساء ، وشواذ الرجال .

أما « الموكشا » أو انطلاق الروح من جميع الشهوات الجنسية فهو الكمال الذى يتوخاه من يطيقه ، ولكنه لا يفرض على جميع الناس .

سأله الطالب رامشاندران — وهو من تلاميذ صديقه الإنجليزى مستر اندروز — لماذا يبشر بالموكشا ؟

فقال : لأن الزواج فى غنى عن التبشير . حسبه دافع الغريزة داعياً إليه .

قال الطالب : أليس فى ذلك خطر من انقراض النوع الإنسانى ؟

قال : كلا . بل فى ذلك تصفية النوع الإنسانى وتهذيبه .

قال الطالب : أليس من واجب العبقرى أن يعقب عبقرياً مثله ؟

قال : إن عبقريته تعقب له أبناء أكثر مما يستطيع أن يلد .

وسئل مرات عن الطلاق كما سئل مرات عن الزواج . فكان يأبى تيسير أسباب الطلاق ، ويقول إنه لا يحل مشكلة الزوجين . فإن المرأة التى لاتجد من زوجها حسن المعاملة لاتنتفع بالطلاق ، ولعلها لاتجسر على طلبه . وإنما يأتى حسن المعاملة من معرفة المرأة بحقوقها وتعليمها الواجب لها والواجب عليها ، وعندئذ تقل الحاجة إلى الطلاق أو تصبح الحالة فى المجتمع خيراً من إكثار المطلقين والمطلقات فيه لجهل الزوجين بما بينهما من الحقوق والواجبات ، وكأنه كان يرى - وكان على حق فيما يرى - أن الهند تنتقل فى حياتها الاجتماعية نقلة طافرة لو تحولت من زواج أبدى ينتهى بإحراق الزوجين على كومة واحدة : إلى زواج يباح فيه الطلاق لأهون الأسباب .

ويطرد مع هذا الرأى أن يشجع غاندى كل حركة تساعد المرأة على الاستقلال والكرامة . وهكذا كان فى مسألة « حق الملكية » . . . فإنها كانت مثار خلاف بين الهنود عند البحث فى تقرير حقوق النساء المدنية والسياسية . فكان الأكثرون منهم يتوجسون من إباحة حق الملكية للمرأة لأنه يغريها بالنشوز وقلة الاكتراث لمرضاة زوجها عنها . وكان غاندى على خلاف هذا الرأى يبيح الملكية للمرأة كما يبيحها للرجل ، ويسأل معارضيه : هل أفسد حق الملكية أخلاق الرجال وعلمهم قلة الاكتراث لمرضاة الزوجات ؟ إذن ليكن شأن النساء كشأن الرجال . فلا قيمة للأخلاق التى تبنى على عجز إنسان من الناس عن الاستقلال برأيه ورزقه ، وليست الأخلاق أخلاقاً إلا إذا جاءت من محض الاختيار ووحى الضمير .

على أنه لم يكن يستحسن للمرأة أن تتعلم لتعمل فى كسب المعيشة وتتمرس بأعباء التجارة ومغامرات السوق ، ويؤثر لها العمل فى البيت على كل عمل فى معترك الحياة .

وكان يوجس شراً من الحرية التى تبيح العبث واللعب بالعاطفة . وكتب مرة يقول : أخشى أن يكون من هوى البنت العصرية أن تلعب لعبة جولييت مع ستة « روميهات »

فى وقت واحد ، وذاك من فاقة النفس لا من حرية الإرادة واستقلال الشعور .

وقد واجهته مشكلة النسوة الشقيات اللواتى احترفن البغاء بمعضلة مضنية . فإنهن يتجاوزن على حسب تقديره خمسة ملايين امرأة فى أرجاء الهند كلها ، قياساً على عددهن فى بلدين زارهن فيهما . وهما : كوكونادا وباريسال ، فمنهن من أربت على الثلاثين ومنهن من لم تبلغ الثانية عشرة ، وكلهن لايطمعن فى الزواج ولايجدن من يقبلهن زوجات إذا طمعن فيه . فكان يواسى من يلقاهن منهن ويدعوهن بالأخوات ، وكان يدبر لهن وسائل الاشتغال بصناعة النسيج ، ويوصى القائمين بمقاطعة البضائع الانجليزية بتفضيل منسوجاتهن لإغنائهن عن التبذل فى سبيل كسب العيش ، وإحياء كرامتهن بالمساهمة فى هذه الحركة القومية ، ورحض عار الدنس والمهانة عن نفوسهن .

وكان بوده أن يلقى العبء الأكبر فى مهمة إصلاح هؤلاء البائسات على حرائر الهند ينشئن لهن الملاجىء ويهيئن لهن الخدمة الصالحة فى البيوت ، فحالت التقاليد بين حرائر النساء وبين النجاح فى هذه المهمة . ورأى غاندى أن يجندهن لقضية من قضايا الهند الاجتماعية لا تقل عن قضية المرأة المنبوذة : وهى قضية الطائفة الكبيرة التى عرفت فى الهند باسم

المنبوذين أو الأنجاس، وهم أحق الناس أن يتفعوا بعطف المرأة عليهم فيما ضرب عليهم من الذلة والشقاء.

قال فى خطاب ألقاه على نخبة من السيدات والفتيات: «إنه لمن الفواجع أن الديانة فى زماننا هذا أصبحت لا تعنى شيئاً غير الامتناع عن بعض الطعام والشراب، أو الترفع عن بعض الطبقات. ولن تكون هناك غباوة أغلظ من هذه الغباوة. فإن الموالد ومراسم التقاليد لن يناط بها رجحان للمرء أو نقصان، وإنما مناط ذلك كله الأخلاق، وماخلق الله الناس وعليهم علامة الرفعة والدناءة. وما من كتاب يدمغ إنساناً بالخسة أو النجاسة منذ مولده يستحق منا الرعاية والاحترام. إنه ليجحد الله ويجحد الحق الذى هو الله. وما كان الله وهو الحق والصدق والعدل ليرضى عن ديانة تنظر إلى خمس أبناء هذه البلاد كأنهم أنجاس لا يجوز مسهم...

وإنى لأريد منكن أن تبرئن أنفسكن من هذه الشناعة البالغة فالنجاسة التى تأتى من العمل النجس موجودة. ولابد أن تقترن بكل عمل نجس وتلحق بكل أحد منا يتغمس فيها. ثم تفارقنا حين نغسل أنفسنا من الضر والوضر، فلا تلزمنا النجاسة، ولكنه ما من عمل أو مسلك يدمغ رجلا أو امرأة بالنجاسة أبد الآبدين».

ومن ثقته بذخيرة العطف فى نفس المرأة أنه كان يعول عليها فى معركته الكبرى ، وهى معركة « الاهمسا » أو مقاومة العنف بالصفح والإحسان .

كان يعول على نساء الهند فى الهند وعلى نساء العالم كله فى العالم كله . لأن المرأة فى كل مكان هى رمز التضحية ومثال الغفران والاحتمال ، وهى فى معركة « الاهمسا » تصنع ما يصنعه الرجل وتزيد ، ولكنها فى معركة العنف لن تزال هى الجنس المغلوب .

فلما عرج على إيطاليا فى طريق عودته من انجلترا سأله السيدات الإيطاليات كلمة لهن فقال لهن — وإيطاليا يومئذ فى ظل الحكومة الفاشية — : « إنكن تستطعن ما لا يستطيعه الرجال من محاربة العسكرية ، قلن لأنفسكن ماذا يصنع قادتكم وجنودكم إذا كان نساؤهم وأمهاتهم وبناتهم يأبين أن يشتركوا فى الأعمال العسكرية ! » .

وقال للسيدات فى لوزان حين سألنه أن يدلهن على درس يتعلمنه من المرأة الهندية : تعلمن منها الاهمسا . . . فإن أوربة إذا « شربت » هذا الدرس فإنما تتناوله من أيدى بناتها .

* * *

وجملة القول إن علاقة هذا الرجل بالجنس الآخر لم

تسكن إلا علاقة قائد جيش يوجه فرقة منه إلى الحملة التى تقدر عليها فى معركته الكبرى ، وهى معركة السلام .

ولم تعرف الدنيا له علاقة بالنساء عامة غير هذه العلاقة .

ولكن الدنيا كانت خليقة ألا تعرفه على الاطلاق من جراء المرأة ، أو كانت خليقة أن تعرفه فى صورة أخرى أبعد ما تكون عن صورة القداسة : صورة زير نساء ، أو فتى من فتيان الأندية والسهرات .

فإن القديس لم يولد قديساً . وتلك مفخرة من مفاخره ، لأن قداسته كلفته شيئاً عسيراً من مغالبة نزعاته ، ولم يجدها حين أرادها سهلة ميسرة على طرف الثمام

كان للمرأة هوى شديد فى نفسه .

وكان لا يطيق الابتعاد عن زوجه فى السنين الأولى من اقترانه بها ، فكان مرض أبيه — على إعزازه لأبيه — لا يحول بينه وبين الإسراع إلى مخدعها كلما سنحت له الفرصة من غفوة المريض أو استغنائه عن ملازمته . وخرج مرة من حجرة المريض على عادته ، فجاءه النبأ بعد هنيهة بأن أباه قد مات .

وظل حياته كلها يقرع نفسه على هذا العقوق ، أو هذا التهافت على الشهوات .

وهمّ أربع مرات أو خمسا بمقاربة نساء غير زوجه، ولـكنه لم يسترسل فى نزواته هذه لمصادفات عاقته، كما قال فى ترجمة حياته، ولعله من تواضعه يحيل الأمر إلى المصادفة ولا يحيله إلى قوة العفة فى طبعه.

وغاندى، ولا شك، مثل من أندر الأمثلة على قوة المناعة التى يكسبها الإنسـان من التربية الدينية والنشأة المنزلية فى مقاومة الشهوات الجنسية وغيرها.

وربما أعانته على ذلك طبيعةٌ فيه عرف بها فى جميع أطوار حياته من صباه إلى شيخوخته، فإنه خلق مطبوعاً على الحب الشامل الذى لا يميز أحداً عن أحد، ولم يخلق لاختصاص أحد بحبه وهواه، من الرجال أو النساء. فلم يكن له صديق واحد منفرد بحبه وتمييزه، وكتب هو فى ترجمة حياته فانتقد هذا النوع من الأثرة بالصداقة، وقال عنه: أنه لا يؤدى إلى خير.

ومع هذا كان فى هذا الرجل فتنة خاصة لبعض النساء. فكن يهجرن الدنيا ليلتحقن به فى صومعته ويعشن إلى جانبه عيشة الفاقة والشظف.

لاجرم أن الرجل القوى يظل فتنة للمرأة ولو كانت قوته فى ترك المرأة.

ترى هل كانت امرأة من النساء تظفر بالمعجبات اللاتى يهجرن الحياة من أجلها لو نسكت مثل هذا النسك وتقشفت مثل هذا التقشف ؟ إنهن إن أقبلن عليها أقبلن على كل حال مشتركات فى مواساة واحدة ، ولم يقبلن مقدسات ولا معجبات .

ومن النساء اللواتى كن يلذن به فتيات غير هنديات . منهن انجليزيات وأمريكيات . جذبهن إليه شعور قلق نحو الحضارة الغربية ، وإيمان صادق بأنه معطيهن من سلام الروح مالا يأخذنه من تلك الحضارة التى أوشكت أن تفلس ، فلا تقوى على إعطاء .

وكانت أعظم عبقرية نسائية أخرجتها الهند — وهى الشاعرة : نايدو — تؤمن به ، وتخلص له ، وتصمد إلى جانبه حين يتخلى عنه المعارضون لسياسته السلمية فى أوقات السخط والهياج ، ولم تخذله قط فى وقت من الأوقات .